Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V:13, N°:2 – 2023, P.P :185-211

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 13،العدد 2- 2023،ص.ص: 185-211

العمل والشخصية القاعدية التونسية: مقاربة انتروبولوجية تاريخية ومساءلات راهنة

Work and the basic Tunisian personality: Historical anthropology approach and current questions

محمد الحبيب الخضراوي

جامعة تونس(تونس) mhkhadhra@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2023/04/02 ؛ تاريخ القبول : 2023/04/29 ؛ تاريخ النشر : 2023/05/20

الملخص

يعرض هذا المقال تشخيصا لملامح الشخصية القاعدية التونسية وموقع قيمة العمل فيها، في إطار مقاربة انتروبولوجية تاريخية تناولت بالتحليل مختلف الصور الثقافية المتداخلة لهذه القيمة الأساسية في الشخصية. ورغم توفر هذه القيمة ضمن الملامح العامة لإحدى الأنماط الاجتماعية التونسية إلا أنها ضلت محدودة ومطموسة أمام العناصر الثقافية الضاغطة والمهيمنة والمزاحمة، والتي دفعت بالمجال وبالواقع الاقتصادي والسياسي الى عدم الصمود أمام الآخر المستعمر الذي يتوفر على قوة العمل في اتجاه تحقيق الثروة والتراكم مع قوة الفعل السياسي والمادي لتكريس ذلك لفائدة أفراده ومجتمعاته. وقد استمر هذا التباين المتنامي في هوته في قيمة العمل نظرا لاستمرار السياقات المنتجة للممارسات والذهنيات التي تكشفها منتجات الذاكرة بشكل ما عبر التاريخ، إضافة الى ممارسات ثقافية وسياسية راهنة.

الكلمات المفتاحية: العمل، الشخصية القاعدية، تونس، تاريخ، انتروبولوجيا ثقافية.

Abstract

This article deals with the value of work within the cultural traits of the basic Tunisian personality within the framework of a historical anthropological approach.

Despite the presence and manifestation of this value among the general features of one of the Tunisian social models, it has remained limited and concealed in the face of other pressing, dominant and competing cultural elements.

This growing discrepancy in the value of Work has continued to deteriorate due to the persistence of the productive contexts of practices and mentalities that are somehow revealed by memory products throughout history, as well as current cultural and political practices.

Keywords: Work, Basic personality, Tunisia, History, Cultural Anthropology.

1. المقدمة

" خدمة عرب"، " Travail d'Arabes "، هي مقولة شعبية كثيرة التداول في أوساط المعيش اليومي وتحمل في ثناياها كثافة رمزية تلحق بنوعية العمل المنجز وتحيطه بوصم اجتماعي يعمل على تصنيفه ضمن خاصية شبيهة بتلك التي تتموقع ضمن ثنائية " الباهي" و" الخايب"، أو " الخير و" الشر"، أو " الملائكة " و" الشيطان"، وهي ثنائيات بنيوية اجتماعية وثقافية فاعلة ومهيكلة للسلوكات والممارسات والذهنيات والتمثلات المرافقة لها.

وتشير الحكاية الى أن أصل تلك المقولة يعود الى عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، حيث يروى أن الملك " شارلمان" تحصل على هدية ثمينة من أحد سلاطين العرب وهي آلة في شكل ساعة لقياس الزمن. وتعكس هذه الهدية المستوى العالي من التطور المعرفي والتكنولوجي الذي توصل اليه العرب المسلمون آنذاك. ولما تعطلت الساعة عن العمل حار الملك في كيفية إصلاحها وإعادة تشغيلها ولم تسعفه موارده المتاحة على إعادتها لسالف عملها نظرا لمستوى الإتقان الصناعي والدقة التي تتوفر عليها هذه الآلة، وعندها انطلقت تلك المقولة معبرة عن هذه الوضعية وشاعت لأن ذلك لا يكون إلا تعبيرا عن " خدمة عرب" وهي خدمة راقية ودقيقة وذات جودة ليست في متناول الجميع.

إننا نتحدث هنا عن حكاية تاريخية تروي لنا وصما إيجابيا لـ " العمل" الذي ينجزه العرب، والسؤال هو: لماذا تحول الوصم الاجتماعي مائة وثمانون درجة وانتقل خلال عصرنا الراهن من الصفة الإيجابية الى الصفة السلبية؟

إن الوصم الاجتماعي المعزز ثقافيا كثيرا ما نلاحظه في أدبيات التراث الثقافي الشفوي لدى الشعوب، وقد أشارت الى ذلك معارف اتصلت بها مثل علم نفس الشعوب وعلوم الذهنيات والتي اشتغلت كثيرا على العلاقات الدائرة بين الأنا والآخر فرديا وجماعيا، حيث كان للأنا علوية دائمة ومرجعية في السلوك والممارسة والأخلاق على حساب الآخر الغريب أو الأجنبي أو "البراني". ويمكن أن نتفهم تلك المفاضلات المقارنة على أساس ردود الفعل الحمائية ورهانات الفاعلين فيها والتي تنشأ بين الأجوار القريبة والمتباعدة سواء كانت قبائل أو محموعات أو شعوبا أو دولا بكل

مناطق العالم، وتأخذ مظهرا لها عبر التعبيرات الشعبية المختلفة ومنها الأمثال الشعبية والخرافات، والنكات والألغاز الشعبية وغيرها.

وتشير الدراسات في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية وخاصة منها ما جاء بالمدرسة الأمريكية في إنتاجات " كاردينير" أن مفهوم الشخصية القاعدية يمكن أن يعكس الأبعاد الثقافية والفردية والتاريخية للمجموعات البشرية من خلال ملامح سلوكية مستقرة نسبيا. وعلى هذا الأساس فنحن نتبنى تلك القراءة التاريخية التي تعطي أهمية لإدراك الجدل الحاصل بين قيمة " العمل " والمعنى الثقافي والرمزي الذي يلحق بها في كل مرة على أساس تغير السياقات وتحديث المتغيرات.

سنعمل في هذا المقال في إطار مقاربة أنثروبولوجية تاريخية وثقافية على تشخيص موقع العمل ضمن الأنماط الاجتماعية المشكلة للشخصية القاعدية التونسية خلال القرن التاسع عشر. ورغم توفر هذه القيمة ضمن الملامح العامة لإحدى هذه الأنماط إلا أنها ضلت محدودة ومطموسة أمام العناصر الثقافية الضاغطة والمهيمنة والمزاحمة، والتي دفعت بالمجال وبالواقع الاقتصادي والسياسي الى عدم الصمود أمام الآخر المستعمر الذي يتوفر على قوة العمل في اتجاه تحقيق الثروة والتراكم مع قوة الفعل السياسي والمادي لتكريس ذلك لفائدة أفراده ومجتمعاته. وقد استمر هذا التباين المتنامي في هوته في قيمة العمل نظرا لاستمرار السياقات المنتجة للممارسات والذهنيات. وتكشف عنه في كل مرة الأحداث الاجتماعية الكبرى وموازنات المشهد الاقتصادي والسياسي ويترجم فيما تعبر عنه الذاكرة الجماعية وتخلده في كل مرة.

2. العمل كقيمة ثقافية

العمل هو قيمة يحملها الفرد وتترجمها آثاره المادية في محيطه وبيئته. ولما كانت حياة الفرد مليئة بالأفعال ذات أبعاد نفسية وثقافية واقتصادية واجتماعية متعددة، فإن موقع العمل من كل ذلك هو ذلك الموقع التراتبي الذي يقدره الفرد داخل منظومة القيم التي يتبناها ويشتغل وفقها ويعمل عند آدائها على قبول نتائجها ومردودها. على أن ذلك التراتب القيمي وإن بدا سلسا وصامتا في التمظهر الخارجي، فإنه يخفي ديناميكية هائلة من الصراع والتغير والبناء والتجديد تحت ضغط

المتغيرات في كل مسارات الممارسة وحياة المعيش، فيعاد إخراجه من جديد وفق السياقات المطروحة في كل مرة.

وتشير مختلف القراءات السلوكية الى أن الممارسة المتكررة والمنمطة يصعب إعادة مسؤوليتها كاملة الى البناء الفردي. فالمحيط بكافة مظاهره له قدرة فعلية هامة في تشكيل السلوك وتوجيهه وبنائه، ومن هنا فنحن نتحدث عن الظواهر الاجتماعية والثقافية التي تتصف بتكرار الممارسة وشيوعها وتداولها الواسع، وهي ظواهر ينتجها الأفراد والمجموعات وقد تختص بها فئات دون غيرها إذا ما كانت ملائمة أكثر لخصوصياتهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية. والظاهرة الاجتماعية حين يتم إنتاجها فإنها توظف في إطار بنائها العناصر الثقافية المحلية التي تساعدها على إضفاء المشروعية للإسناد والبقاء والاستمرار.

وليس من العسير أن نبرهن اليوم على الموضع المحرج لقيمة العمل في معيشنا اليومي نظرا الى التباين بين الاحتياجات المعيشية ومستوى العمل الذي يبذل لتلبية تلك الاحتياجات في شتى الميادين. ولم يكن هذا الموضع عابرا بقدر ما هو خاصية تحيزت امتدادا زمنيا واسعا وأصبحت الى حد كبير ملازمة للمجال المغاربي عموما والتونسي مجال الدراسة، وذلك ما يدعو الى مساءلات متعددة الاختصاصات لتعميق النظر حول هذه المتلازمة وشروطها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لأننا نعتبر أنه يوجد تداخل كبير بين السلوك الفردي والظاهرة الاجتماعية والإطار الثقافي والاجتماعي الحاضن له. وبالإمكان ملاحظة هذا التداخل أكثر عندما يتم إدخال متغير الزمن لقياس الديمومة والاستمرار للظاهرة المعنية والسلوك المدروس. فالعمل مثلا كخاصية سلوكية تميز الأفراد وكظاهرة ثقافية واقتصادية تميز المجموعات والمجتمعات تتوفر على علامات متشابهة ومتكررة باستمرار من زمن لآخر داخل المجال المشترك الشيء الذي يحيل الى إمكانية إدراجها ضمن ملامح الشخصية الأساسية أو القاعدية للمجموعة البشرية.

3. لعمل ضمن العناصر الثقافية المكونة للشخصية القاعدية خلال القرن التاسع عشر

لقد لاحظنا في دراسة قمنا به حول الشخصية القاعدية التونسية خلال القرن التاسع عشر من خلال مدخل العلاقة مع المال (الخضراوي محمد الحبيب، 2022)[1]، أن العمل هو تعبيرة موجودة ضمن مكونات التشكلات العامة للشخصية القاعدية التونسية تتقاطع مع تعبيرات أخرى وتتبادل معها التأثيرات التي تصيغها وفق إخراج معين بحسب السياقات والأحداث وتجعل منها نمطا اجتماعيا مميزا في الممارسة والسلوك اليومي وهي تتوفر على ملامح متداخلة تتأثر بالتمثلات والعناصر الثقافية المحيطة مثل الفعل والسعي، والكسب، والمال، والله.

رسم عدد 1: ملامح الشخصية القاعدية في إطار دائرة العمل

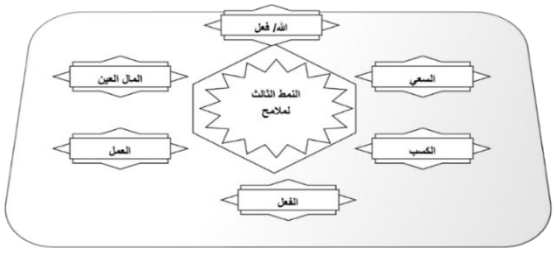

يشير الرسم عدد 1 الى كوكبة من العناصر الثقافية المتجانسة التي تؤدي الى تشكيل معالم نمط اجتماعي تنطبق مكوناته على الفئات الواسعة من التونسيين الذين هم في دائرة الكسب والعيش من دائرة الحرف، والتجارة والإنتاج الفلاحي، كما أنه يمكن أن يمتد زمنيا الى القرن التاسع عشر وربما قبله، ويقوم على مجموعة من التشكلات المركزية والعناصر الثقافية تنتهي بالعمل كتعبيرة سلوكية بارزة في ملامح الشخصية القاعدية التونسية.

[1] لقد نقلنا الصور الأربعة لأنماط الشخصية القاعدية من نتائج ما توصلنا اليه في بحثنا بعنوان: الشخصية التونسية القاعدية

النمط الأول: الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار دائرة فعل التفتت. ص 147.

النمط الثاني: الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار دائرة فعل العبادة. ص 154.

النمط الثالث: الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار دائرة فعل العمل. ص 162.

النمط الرابع: الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار دائرة فعل تحقيق الثروة. ص 167.

أما مقولة العمل التي يختص بها هذا المقال فقد أعادت قراءة تلك المخرجات تحت مجهر " العمل" كأحد العناصر الثقافية المشكلة للشخصية القاعدية.

لقد استفدنا كثيرا من دراستنا للنماذج السلوكية والقيمية التي تطرح المكونات العامة المتدخلة في تفسير المواقف والاتجاهات السلوكية للأفراد. ومن بين أهم هذ النماذج ما طرحة " شوارتز: ("Schwartz, S.H. , 1992, pp 1-65") من رسم تخطيطي للعلاقات التراتبية بين القيم العشرة التي اقترحها وهي قيم مترابطة ترابطا منطقيا بحسب السلوك الحامل لها ومتصلة على شكل هيكل دائري مثلما يبينه الرسم التالي:

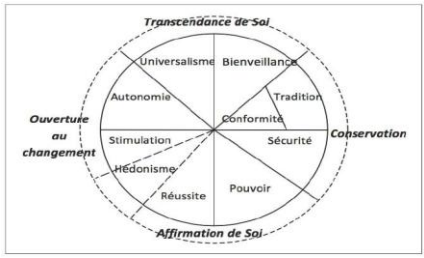

رسم عدد 2 (CHATAIGNé Christine, BONARDI Christine, PANTALéON Nathalie, 2016, p4 27)

المخطط الهيكلي للقيم بحسب منظومة "شوارتز"

فالسلوكات يمكن أن تكون متوافقة ومتجانسة كما يمكن أن تكون متصارعة بحسب موقها من مركز محيط الدائرة. كما تتوزع هذه القيم الى أربعة أقطاب رئيسية تتجاذبها في اتجاه تأكيد الذات أو تعاليها وفي اتجاه الانفتاح والتغيير أو المحافظة.

ومن جانبنا فقد انتهينا الى تشخيص أولي للمشهد الثقافي العام المكون للعناصر الثقافية المشكلة للشخصية القاعدية خلال القرن التاسع عشر بالبلاد التونسية وقد رسمنا مخططا هيكليا عاما يتفرع الى أربعة نماذج سلوكية ومنها هذا النمط الذي يتضمن عنصر العمل كأحد المكونات الرئيسية له. وبالعودة الى المصادر الثقافية الحاضنة لهذا النمط الاجتماعي فإننا نلاحظ وفرة هامة من النصوص التراثية التي تعزز هذه القيمة وتثمن ممارستها اجتماعيا ورمزيا. وتوظف في تفسير السلوك ومشروعيته والاستدلال الحجاجي عند وقوع الخلافات، ومنها :

- *" وقل اعملوا فسيرى عملكم ورسوله والمؤمنون"* (القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية 105)

- *" من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُون.* [2].(القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 97)
- *لأَنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا* (الألباني، 1996، ص 371)
- *لأَن يأخذ أحدكم أُحبُلَهُ ثم يأتي الجبل، فيأتي بِحُزْمَة من حطب على ظهره فيبيعها، فَيَكُفَّ الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس، أعْطَوه أو مَنَعُوه.*[3](ابن عبد البر، 1993، ص 7/670)
- *" من زرع حصد "*
- *" يوفى مال الجدين وتبقى صنعة اليدين "*
- *" الي ما يشقى ما يلقى "*
- *" الحركة بركة "*
- *" اخدم على روحك تغني لوحك "*
- *" حط الفلوس على فم الميت يضحك "*
- *" شاقي ولا محتاج "*
- *" اخدم بالصفا يحبك المصطفى "*
- *" اعط الفرض وانقب الأرض "*
- *" خانها ذراعها قالت مسحورة "*

4. أنماط اجتماعية أخرى للشخصية القاعدية مزاحمة لخط العمل

هذا النمط الاجتماعي الذي يعود الى القرن التاسع عشر وربما الى أزمنة أخرى قبل ذلك، والذي يقوم على مجموعة من التمثلات المركزية و العناصر الثقافية التي ترتقي بالعمل كتعبيرة

[2] ويفسر الجزاء المكافئ للعمل بالحياة الطيبة والتي يفيد معناها الرزق الحلال الطيب وفسرت أيضا بالقناعة وبالسعادة في مواضع أخرى.

[3] رواه البخاري، ويشير الحديث الى مجموعة من المعاني والقيم في علاقة بالعمل مثل الكسب بالعمل اليدوي أفضل من السؤال فالذي يأخذ حَبَلَه ويخرج إلى المراعي والمزارع، والغابات، فيجمع الحطب ويحمله على ظهره ويبيعه؛ فيحفظ بذلك على نفسه كرامتها وعزتها؛ ويقي وجهه ذلة المسألة، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو مَنَعُوه؛ فسؤال الناس مذلة. كما يحظ الحديث على قيم التعفف والحث على العمل لتحصيل الرزق حتى ان كان هذا العمل حقيرا في أعين الناس لأنه لا ينبغي احتقار العمل والاستحياء منه ولو كان يسيرًا صغيرًا لا قيمة له في نظر الناس.

سلوكية بارزة في ملامح الشخصية القاعدية التونسية وتتجلى في شخصية مجموعة هامة من المهنيين بالمجتمع التونسي والمجتمع العربي الإسلامي عموما لعل أهمها مهنة الحرفي والفلاح والتاجر, وهذه المهن التي برع فيها التونسيون بالمهارة والجهد ، وفرت الى حد كبير الحاجيات الأساسية لمتطلبات الحياة للتونسيين خلال القرن التاسع عشر بالمدن والقرى والأرياف حتى امسى الحانوت أي المتجر مرجعا في المخيال الجماعي التونسي من خلال تواتر المثل الشعبي القائل: " *لا دار لا حانوت لا جبانة فين يموت* ".

وتؤكد هذه التعبيرة الشعبية ترسخ فكرة الحرفة والتجارة كعامل مقوم للروابط الاجتماعية ومعزز للإحساس بالإنتماء الى المجموعة حتى أنه أصبحت الحياة دون معنى خارج دائرة العمل والاشتغال وفق ما توفره الحرف من تأمين اجتماعي واقتصادي فاعل.

وقد تنعكس عائدات العمل وفق تلك الصورة من خلال الاشتغال بالحرف أو بالفلاحة أو بالتجارة على المظاهر الخارجية لأصحابها وفي اقتنائهم للدار أو السانية أو الهنشير، حتى أنهم أصبحوا يمثلون فئات اجتماعية واقتصادية قائمة الذات في ملابسهم ومنازلهم وحقولهم وأراضيهم وممتلكاتهم وفي مجالسهم وفي نسيج علاقاتهم مع من هم دونهم مثل " البراني" أو أمثالهم " بلدي". كما أن هناك مدنا كاملة اختصت بملامح هذا النمط الاجتماعي مثل مدينة " جربة" ومدينة صفاقس، وبعض المناطق الأخرى من مدن سوسة والمهدية وغيرها.

1.4. العمل وفق تقاطع الرؤى الداخلية والخارجية

إن الملاحظة الميدانية التي وردت على ألسنة المؤرخين تؤكد هذا النمط الاجتماعي في شخصية التونسيين عموما، لكنها في المقابل تعرض لنا في نفس الوقت مشاهد أخرى من ملامح الشخصية قد يكون العمل خافتا أو باهتا أو غائبا في السلوك والمعيش اليومي أو قد يكون مرفوقا وملازما لقيم أخرى توجه معالمه وتحدد عائداته أو غاياته. كما أن الكشف عن تلك المشاهد المختلفة يضيف عناصر ثقافية أخرى وازنة في التراتب القيمي لدى التونسيين عموما.

فقد نقل الينا المؤرخون والرحالة الأجانب صورا من المشهد العام لملامح الشخصية القاعدية تجعلنا نعيد طرح التساؤل من جديد حول الأنماط الاجتماعية السائدة خلال القرن التاسع عشر وموقع العمل ضمن تراتبية عناصرها الثقافية؟ كما يمكن أن نتساءل عن محدودية النمط الاجتماعي القائم على العمل في حد ذاته؟ وهذه المحدودية (وجود حدود) تفرضها سياقات تاريخية وسياسية واقتصادية للمجال، وكانت نتائجها وأعراضها جد ضاغطة على المجتمع بكافة فئاته، انتهت بنا بشكل تراكمي ومتدرج بدءا بالأزمات الاقتصادية والاجتماعية ثم مرورا بالاستعمار والتدخل في الشؤون الداخلية ومنه الى ما نحن عليه اليوم من وصم بالتخلف والفقر والكسل والجهل.

إن الأمثلة التاريخية ليست بالقليلة في رسم صورة التونسيين خارج دائرة العمل وتتقاطع في ذلك المنظور الداخلي المحلي والمنظور الخارجي الذي يصور بعدسة الأجنبي والرحالة.

فمنظومة الإنتاج الفلاحي المحلي مثلا خلال القرن التاسع عشر أثقلتها الرهانات السياسية القائمة آنذاك وظل حال الثروة في البلاد في نقصان لان الفعل والعمل هما أيضا في تناقص. و قد أورد ابن أبي الضياف نصا دينيا متداولا بشكل خرافي بين الناس في وصف حالة تردي الواقع يقول:" إن الفلاح في آخر الزمان يمر بالمحراث فيضربه برجله ويقول له يا سبب فقري" (ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، 1963، ص 187)، وهو تعبير شعبي واضح عن مؤشرات التراجع في الفعل بشكل عام وفي العمل الفلاحي بشكل خاص. وهذه رجة قوية تنضاف الى الوعي الجمعي لتناظر قيمة العمل وتحاصرها بعناصر ثقافية أخرى ذات أثر مباشر على الواقع بكل مكوناته.

ويشير المؤرخ ابن أبي الضياف الى أن الباي على علم تام بمستوى هذا التراجع وكادت الفلاحة أن تنقطع حسب تعبيره (المرجع الأخير، ص ص 186-187)، و أكثر الهناشر مكتوب اسمه مقرونا بالأبيض في التقارير التي توجه للباي كناية على عدم البذر، و لم يهتم الباي بنقص الإنتاج هذا حيث انه لم يستحسن عرض تقرير في الأراضي التي أصبحت لا تنتج.

هذا السياق من الضغط المتنامي على الأهالي عبر الجباية بالأساس أدى الى تكون ملامح لاستراتيجية اجتماعية، نطلق عليها مبدئيا تسمية "استراتيجية التخلي"، فهي لا تجازف كثيرا في الفعل والعمل وتفضل توفير الحد الأدنى الضامن للبقاء في مجالات كثيرة من الحياة ومنها المسكن

والتغذية والإنتاج الاقتصادي عموما. وهي قيمة سلوكية تجد لها أرضية ثقافية في المكتسبات الدينية والطقوسية فتعمل على تعزيزها وإضفاء المقبولية عليها. لذلك يمكن القول بأن إستراتيجية التخلي هذه تعتبر كأرضية سلوكية في مواجهة ضغط الواقع ومتطلباته. ومن أهم عناصر الضغط هو المعطى السياسي الذي كان أثره عميقا في تشكيل الوعي ورسم حدود الفعل والعمل.

وقد انعكس تأثر المعطى السياسي في السلوك الفردي ومنه الى اللغة المستعملة ووظيفة الكلام والخطاب في حد ذاته التي اتخذت دلالات اجتماعية حافظت على استقرار هام في استعمالاتها.

فاللغة وما تحمله من خطاب واقتدارات تعبيرية وإدراكية في علاقة لصيقة بالوعي بالمجال وبالضغط الذي يطرحه المجال على الأفراد والمجموعات، وبقدر ما كانت اللغة تحمل رموزا ودلالات مشتركة بقدر ما تعزز من تثبيت المجال وترسيخه بما يؤثر بدوره على الوعي والخطاب.

لذلك فنحن حين نتحدث عن الصمت والكلام في الخطاب الشعبي مثلا من خلال مجموعة من المقولات المنقولة عبر مختلف الأوعية المادية والرمزية كالذاكرة الجماعية مثلا، فإن ذلك يحيل الى المواقف الاجتماعية من الأحداث الجارية، وحين تتكرر المواقف وتستمر في الزمن فإن ذلك يشر الى تشكل سمة سلوكية قابلة للنقل عبر مؤسسات التنشئة وهو ما يحيل أيضا الى أن المخزون الرمزي يتداخل مع شبكة العلاقات الاجتماعية ومع النظام الاجتماعي الحامل لدلالات ثقافية ذات الأثر العميق في نفسية الفرد ومواقفه وتصوراته وممارساته أيضا.

2.4. مقولات لغوية من الذاكرة الجماعية والتراث الشفوي

من المهم هنا أن نقف عند بعض الشواهد الخطابية للمنطوق الشعبي في إطار علاقة القول بالفعل.

- النص الأول:" *إذا الكلام من فضة يكون السكات ذهب* "[4]

[4] مرجع غير مؤرخ من التراث الشفوي الشعبي التونسي

- النص الثاني:" *يا قليبي في ذا الزمان الصمت إيلو شان احبس لسانك وزيد عليه بسجان*" *(Sonneck C , 1902)* [5]

إن ثنائية القول والفعل هي ثنائية متلازمة ضمن عناصر الثقافة المحلية، وإذا كان مستوى القول والكلام تدنى الى مستويات كبرى بفعل الضغط المتنامي من المحيط لا سيما السياسي منه فإن تبعاته على مستوى الفعل والعمل ستلازمه وتتوافق معه. هكذا كانت وظيفة الكلام ووظيفة الصمت التي لا يزال صداهما يحدث وقعا يمتد الى تاريخنا الراهن حيث يتم تشكيلها ورسمها من المجتمع كتعبيرة عن استجابة سلوكية لسياقات سياسية معينة، فالتخلي عن الكلام يعتبر استراتيجية اجتماعية وعقلانية ثقافية لمواجهة التهديدات المستمرة الموضوعية منها والمتخيلة. أما النصوص الشفوية المذكورة أعلاه فهي شهادات في شكل مقولات شعبية وأدبية، يبدو أنها حاملة لرسالة ثقافية أو حكمة تسعى الى تمريرها عبر التاريخ وفي أزمنة مختلفة، تبين جميعها التقارب الموضوعي للمادة الثقافية في المخيال الجماعي التونسي في علاقة بالكلام والصمت. وإذا كان الكلام قادرا على التعبير فإنه مجلبة للمشاكل والتبعات غير المحمودة. لذلك يفضل الصمت الذي يقدم كحكمة اجتماعية تؤمن الفرد من المخاطر المحدقة به. ونشير هنا، الى أن المجال يمكن أن يخلق تجانسا ثقافيا حاملا لدلالات ورموز متبادلة ومشتركة، بما يعني أن المجال الجغرافي قابل لأن ينتج مجالا ثقافيا ورمزيا مشتركا مثلما تشير اليه تلك المقولات من الشفاهية الشعبية.

ويبدو أن القرن التاسع عشر تركد أحداثه السياسية والاقتصادية والاجتماعية هذا الحذر المتنامي من التجني على مردود العمل وعلى مردود الكلام أيضا. ومثلما أنه يجب الحذر من فائض الكلام وتثمين الصمت للضفر بالسلامة من السوء فإن الاستراتيجيات الاجتماعية عملت أيضا على تقليص مردود العمل حتى لا يعود بالوبال على صاحبه. لذلك تلجأ بعض العائلات الى عدم الكشف عن مستواها الاقتصادي وإخفاء ممتلكاتها وتحويلها الى ذهب وفضة حتى يسهل نقلها وعدم تعريضها للسطو الذي تمارسه السلطة السياسية تحت مسميات مختلفة ومنها الجباية والتفليس والتتريك والبيلكة والفك وغيرها من الأعمال التي نظرا لتكررا واستمرارها أصبحت هاجسا موضوعيا

[5] الصمت هو خاصية أو ظاهرة اجتماعية، كما يمكن أن يكون موقفا مقصودا نتيجة للعواقب المترتبة عن الكلام أو إبداء الرأي علنا وهذا ما نلمس له آثارا في الشعر الشعبي الذي نجهل مؤلفه حسب رواية "سوناك Sonneck " والذي تم رصده خلال القرن التاسع عشر بالبلاد التونسية.

يؤثر على السلوك ويترك بصماته على الذاكرة الجماعية والمخيال الجمعي. ولا تخفى تلك الآثار المنتجة على عدسة الأجانب الذي يتناقلونها بسرعة اعتقادا منهم على أنها سلوكات ثابتة لدى التونسيين بينما هي استراتيجيات اجتماعية للتعامل مع ضغط الواقع لا سيما السياسي والاقتصادي منه.

فعنوان التخلي كاستراتيجية اجتماعية وكعقلانية سلوكية تنتج في إطار السياقات السياسية والاقتصادية بالمجال التونسي، لم يشمل فقط التخلي عن الكلام وتعويضه بكلام الصمت وإنما شمل أيضا التخلي عن العمل وتعويضه بالجهد الذي يسد الرمق أو بما تشير الى معانيه المقولات الشفوية من التراث الشعبي اللامادي مثل:

- *ناكلوا في القوت ونستنوا في الموت*[6]
- *البس ما ستر وكول ما حضر واصبر حتى للقبر*[7]

لقد خلقت إدارة السلطة للمجال نوعا من الكسل الذي يستفيد منه أهل السلطة ذاتها لأنها محصلة منتجة للعبودية والتحكم والرضوخ، ولأنها سياقات منتجة للهروب من الواقع والتخلي عن الفعل لفائدة القائمين على المجال، إنها عبودية مركبة بين الأهالي والسلطة من ناحية وبين السلطة والقوي الصاعدة العالمية من ناحية أخرى.

فقد لاحظ الرحالة " إيفالد" أن ما يجري في القصر أي السلطة السياسية والشقوق المتنازعة داخله، له انعكاس مباشر على وضعية الأهالي والسلم الاجتماعي، فذكر سنة 1835 " أن صحة الباي تدهورت واشتد مرضه وصار موته منتظرا وكانت هناك بعض التخوفات من أن يؤدي مماته الى اندلاع ثورة لأن البلاط منقسم الى شقين قويين يقفان في عداء وجها لوجه" . ومن الآثار المدمرة على حياة السكان هو ما تتصيده السلطة وأهلها لمن ظهرت عليه ملامح الثروة والوفرة في المال والأعمال، مما أثر على الوضع المادي العام ببعض البلدات، كما أثر على الاستقرار الديمغرافي فيها والنزوح الى المدن الكبرى ومنها الى تونس الحاضرة. فعلى سبيل المثال

[6]أي بما بمكن تحويله من اللهجة المحلية التونسية اللغة العربية: نأكل القوت وننتظر الموت.

[7]أي بما بمكن تحويله من اللهجة المحلية التونسية اللغة العربية بصيغة الأمر: البس ما ستر وكل ما حضر وانتظر القبر

يذكر " إيفالد" لدى زيارته مدينة سليمان رابطا بين تقلص عدد السكان هذه البلدة بالممارسات الجائرة لدى السلطة السياسية، فيقول:" ومن أسباب تقلص عدد سكان هذه البلدة الجميلة (مدينة سليمان) أيضا أسلوب حكم الباي الأرعن المتجبر. فحالما يعلم الباي أن أحد أهالي سليمان يعيش في رخاء لا يهنأ له بال حتى يستحوذ على ماله ويضمه الى خزينته ويصير صاحبه في عداد المتسولين"(إيفالد، 1991، ص 24) وهذه احدى الصور التي يطلق عليها بعمليات الـ " تتريك" التي رسخت في أذهان الأهالي واستقلت مكانا بالذاكرة الجماعية. ونتيجة لهذا الضغط المتزايد على الأهالي تنزع مجموعات منها منهم الى حاضرة تونس لتكون في مأمن نسبي من كل ذلك، لأن سكان مدينة تونس كانوا معفيين من دفع الضرائب المباشرة. وقد نشطت صور التتريك كثيرا مع حركة انتزاع الأموال في عمليات المجبى الموسمية وفي عمليات العقاب الفردي والجماعي التي تقع بالمجال في فترات معلومة وخاصة منها تلك التي لحقت ثورة علي بن غذاهم في الساحل التونسي والوسط.

تلك هي شهادة مهمة في تفسير مستوى الفعل لدى الأهالي في علاقة بالسلطة المركزية لأن تراكم هذه الممارسات واستمرارها في الزمن وشيوعها سيخلق أرضية من ردود الأفعال لا تتسم كثيرا بالحركة والسعي نحو الكسب وتحقيق التراكم فيه لأن ذلك مدعاة لجلب الانتباه لشراهة السلطة التي لن تتوانى في التنكيل بصاحبه تحت ألوان شتى من الذرائع.

5. صور العمل في ملامح الشخصية التونسية

الصور التي ينقلها الآخر عن الذات المحلية تعتبر مصدرا هاما من المعلومات لا فقط عن الموضوع الموصوف، بل أيضا عن الذات الناقلة، ودون الغوص في المركزية الثقافية التي صاحبت كثيرا عمليات نقل الصور عن المجتمعات المسماة بـ"البدائية"، فإنه بالإمكان التوقف عند بعض الإشارات التي تم نقلها عن طريق العين الثقافية للآخر الثقافي لمساءلتها وفهمها قدر الإمكان. فالرحالة حمد الوزان الفاسي مثلا المعروف بـ "ليون الإفريقي Léon l'Africain "، يعرض لنا صورة سلبية عن سلوك أهالي افريقية الحفصية تجاه العمل في الأرض في العهد الحفصي (Rodinson Maxime,1966, p 65). وعلى ذلك فهم لا ينتجون الوفرة ولا يلبسون

أو يأكلون الا من التحويلات الأولية لما توفره لهم الطبيعة والحيوانات.(رحلة المبشر إيفالد ص 38)، كما يميلون كثيرا الى الكسل (Danguin, J., 1907, p34)، ووسائلهم محدودة ولا يتوفرون على المهارة الضرورية لذلك (Lapie Paul , 1898, p44). وتتطابق بعض هذه المواصفات مع ما ينقله أحمد ابن أبي الضياف خلال القرن التاسع عشر حول ضعف رغبة المتساكنين والفلاحة في العمل والرغبة في التخلص من أدوات الإنتاج لأنها مجلبة للسطو والتسلط والفك" والجباية المثقلة، مما بدى للآخر الثقافي الكسل وفقدان الدافعية نحو العمل وكأنه طبيعة راسخة ومميزة لسلوك المحليين.

وإضافة الى تلك الصفات في ملامح الشخصية فهناك صفات بنيوية ألحقها الاستعمار بالتونسيين مثل نوعية الروابط التي تجمع بينهم، ومرجعهم القبلي إضافة الى بعض الصفات الدنيئة التي يحملونها مثل ما ذهب اليه الهادي التيمومي بقوله: " فالتونسيون بالنسبة الى الاستعماريين الفرنسيين "غبار من أفراد" Poussière d'individusوهم تراكمات سكانية مجزؤون الى وحدات متعارضة فيما بينها Segmentaires وليست بينهم ذرة واحدة من الرابطة الوطنية، وهم سكان ذووا تضامن آلي بسبب القبلية، وليسوا ذوي تضامن عضوي على غرار المجتمعات المتقدمة، لذلك لا يمكن تسميهم " تونسيين" وإنما " أهالي" Indigènes ، وكان الفرنسيون يتجنبون استعمال كلمة عرب للإشارة الى التونسيين ويستعملون كلمة " مور" Maures أي بربر، وذلك بهدف ابعاد تونس عن محيطها العربي، وكانت كلمة عرب عندما يستعملونها، يحملونها معنى سلبيا: العربي الوسخ Sale Arabe ، الموعد العربي.." (التيمومي، 2015، ص 131.)

1.5 الفعل/ العمل/السلطة في ملامح الشخصية التونسية

لقد اعتمد "بول لابي" قراءة نفسية اجتماعية للمجتمع التونسي وفئاته وتقدم أشواطا من خلال خلفيته الفكرية والثقافية في الغوص أكثر في أعماق الشخصية التونسية، وينتهي بعد معاينته للسلوك اليومي للتونسي الى بيان ملامح مميزة للشخصية التونسية في تباين واضح مع بعض الفئات الأخرى كما يسميها مثل الأوروبيين. وهذا ما ذهب إليه المؤلف حين قال: "يبقى القول

صحيحا أن "العرب" يبدون أقل نشاطا من الأوروبيين ذلك أن الحركة تتطلب الرغبة والرغبة تستوجب التوقع والتقدير. والذكاء يجب أن يصوغ مشروعا قبل أن تتدخل الإرادة لإنجازه. وإذا كان الفعل قليلا فإن الإشكال يكمن في التوقع".(Lapie Paul , 1898, p15)

فشخصية التونسي حسب رأيه تتميز بعدم الحركة وانحسار الفعل في الواقع وذلك لغياب المشروع لديه. وإذا كان التونسي خلال القرن التاسع عشر يفتقر الى مشروع حياتي فهذا يعني بأنه دون إرادة وليس لديه الرغبة في الحركة التي تدفعه للفعل في الواقع والكسب والحصول على المال. وهذه الملاحظات هامة يجب أخذها بعين الاعتبار في تحليلنا للتشكلات الأساسية للشخصية التونسية، فضعف الفعل وغياب المشروع يعني أيضا ضعف الاستثمار والتخلي عن متاع الدنيا لفائدة الآخر بتنوعاته المختلفة. ولذلك فإن سلوكهم وحياتهم ما هي الا ممارسات متكررة وعادات ليس فيها رهانات ورغبة في.

فالملامح المميزة إذن لهذه الشخصية تغيب عنها الرهانات الفردية والجماعية وما تحققه من كسب وتغيير، فهي تكرار أنماط سلوكية هدفها الاستمرار وليس التجديد والفعل كما يراها الأخر الثقافي.

ولم تغب عن أنظار الآخر الثقافي إدراك أثر السلطة في تشكيل السلوك المحلي وأن أفعال السلطة تؤثر في ردود الأفعال ويتخذ لها المحليون أشكالا عديدة من الاستجابة و المواجهة والمجابهة والمهادنة. فالسلطة السياسية خلال القرن التاسع عشر ذات أثر مهيكل للواقع بكل أبعاده المختلفة ومنها الممارسات المحلية ومستوى الفعل وعمقه لديهم.

والسلطة خلال القرن التاسع عشر تعتبر بمثابة عنصر فاعل في الثقافة ومتداخل مع بقية العناصر الأخرى الثقافية ذات المرجعية الدينية والتاريخية، وتأثيرها يمتد الى عمق الشخصية التونسية سلوكا وتمثلا. وقد نقل الينا الآخر الثقافي بعضا من صور هذه العلاقة التي تجمع بين الأهالي والسلطة من خلال الفعل ورد الفعل داخل المجال.

فالتخلي عن الفعل وضعف العمل والكسل إذا ما أصبح ظاهرة اجتماعية فإنه يؤدي حتما الى العبودية مثلما تقوله العبارة الشهيرة "La Paresse toujours mène à la Servitude" وليس غريبا أن تبعد إدارة المجال والتصرف فيه الإيالة التونسية عن الاستقلال الاقتصادي

وتضعها في حالة تبعية مع الدول الاستعمارية في حوض المتوسط. فغياب الفعل الاقتصادي والاستثمار مع ممارسات النهب والتبذير أجبر البايات في الدخول الى دوامة القروض والتبعية الدائمة مع تلك الدول والتوسل اليها وهي الصفة الأولى الخارجية للعبودية، كما شجع الأهالي على الحذر في الفعل والتراخي عن تحقيق الثراء على خلفية السطو و"التتريك" و"بيلكة" (أي إحالتها الى رزق البايليك) الأموال والمتاع و" فكها" [8]. وهذا الجانب الثاني المنتج للعبودية، وما لاحظه الأجانب من ضعف في الحركة والفعل وغياب المشروع يجد له تفسيرا في جانب هم من هذا السياق التاريخي.

فالعمل وما ينتج عنه من كسب المال والسكن بالمجال يتأثران بممارسات السلطة السياسية أو بما يتوقع منها من الممارسات والخوف من آثارها. ونظرا لقوة أثر المهيكل للسلطة السياسية في تشكيل السلوك، فقد نشأت أرضية ثقافية تعزز ملامح الشخصية القاعدية التونسية في اتجاهين مختلفين:

- الإتجاه الأول: العناصر الثقافية لملامح الشخصية المنخرطة في دائرة السلطة
- الاتجاه الثاني: نشأة العناصر الثقافية لملامح الشخصية التي لا تتآلف مع السلطة وتبتعد عنها

[8] "فك" الأموال هو مصطلح مستعمل في اللهجة العامية التونسية الى اليوم ويعني استعمال العنف وانتزاع الأموال والأملاك دون مبرر قانوني أو شرعي. وقد استعمل هذا المصطلح في فترة حكم عثمان داي، وورد هذا المصطلح في كتاب القفصي (المنتصر بن المرابط بن أبي لحية)، نور الأرماش في مناقب القشاش، تحقيق: لطفي عيسى وحسين بوجرة، تونس: المكتبة العتيقة، 1998. ص 212.

وإضافة لمصطلحات " تبليك" و " تتريك" وفك" نشأت مصطلحات أخرى في نفس السياق واستمرت مع الزمن الي وقت كتابة هذا النص، ومنها نجد المصطلحات الشعبيه المتداولة مثل : " خلاه" و"جلاه" ، وتعود الى عمليات الاخلاء والإجلاء التي تقوم بها السلطات العسكرية وما خلفته من آثار للعنف والحرب خاصة منذ عهد حمودة باشا على القوى القبلية المناهضة للسلطة بالبلاد التونسية. كما شملت عمليات الاخلاء والاجلاء فيما بعد بعض المدن ومنها ما ذكره الرحالة إيفالد حول مدينة جمال فهي كما يقول: قرية كبيرة سبق أن قام أهلها بثورة ضد الحكومة فهدمت ديارهم ومنع عنهم منذ ذلك الحين البناء بالحجارة وفرض عليهم الاقتصار على الطين. لذلك نجدهم اليوم يسكنون كلهم أكواخا حقيرة" . رحلة المبشر إيفالد، المرجع نفسه ص 122. كما تواصلت عمليات التتريك والبيلكة اثر كل انتفاضة وخاصة منها ثورة علي بن غذاهم وما جرى لسكان الساحل.

الإتجاه الأول: وفيه نجد جميع الفئات التي تحوم حول السلطة من أعيان وكبار التجار واللزامة وغيرهم من الفئات الذين خضعوا لشبكة الروابط الاجتماعية التي نسجها أهل الحل والعقد فأصبحت بمثابة البنية العامة المهيكلة للسلوك المطلوب والأمثل في الكسب، والترقي المالي، والاجتماعي، والسياسي. ونظرا لاستمرارية العلاقة المنفعية المتبادلة بين السلطة وهذا النوع من الفئات فقد تكونت ثروات هامة لديهم واستفادوا من تسهيلات السلطة وغض الطرف عن الممارسات الإقطاعية التي صاحبت جمعها وتكديسها وعليه نشأت العناصر الثقافية المدعمة لمثل هذا الترابط ومنه نجد ملامح النمط الاجتماعي المجسد لمثل هذه الممارسات حسب ما يمثله الرسم التالي:

2.5 النمط الرابع من الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار التراكم وتحقيق الثروة

رسم عدد 3: ملامح الشخصية القاعدية في إطار دائرة تحقيق التراكم والثروة

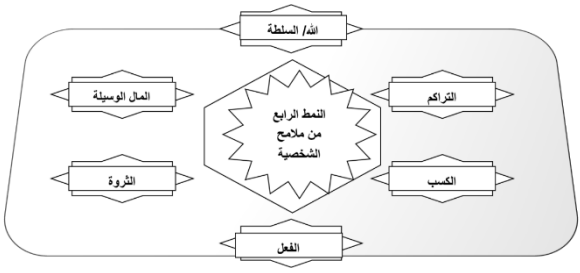

إن أهم فئة اقتصادية واجتماعية يمكن أن تعبر عن هذا النمط من الشخصية القاعدية هي فئة اللزامة وأصحاب الوظائف الإدارية والسياسية، وهي فئة تحيزت على مدى قرون مستويات متقدمة من العمل الموجه نحو امتلاك الثروة وتحريك الفعل الاقتصادي ومن ورائه الاجتماعي تحت مسميات منظومية مختلفة لمرحلة ما قبل الرأسمالية. كما يمكن أن نضيف الى هذه الفئة كل رجال الدين الذي كونوا ثروات كبيرة نتيجة حرصهم الشديد على الجمع والتراكم مهما كانت العناوين التي يسوغونها لتحقيق ذلك أخلاقية كانت أو اجتماعية، حتى وإن كان القول مخالفا للفعل. وتتصف السمة الغالبة لهذه الشخصية الفرعية بالترابط العضوي مع السلطة السياسية، حتى أنه لم يعد المجتمع يميز كثيرا بينهما لوجود هذا الترابط. وقد تطور هذا الترابط الى درجة متلازمة بين قطبين حتى بات عائقا أمام تطور الفعل الاقتصادي وتراكم الثروة وانتشارها على فئات أوسع. فالثروة يمكن أن تتحقق كما وكيفا، كما يمكن أن تختفي في لمح البصر عندما تزول تلك العلاقة مع السلطة أو يدخلها شك وريب بسبب أو بدون سبب ظاهر.

وقد ترتب عن هذا التلازم مجموعة هامة من الممارسات الاقتصادية التجارية والمالية والإدارية والسياسية التي تشكل نموذجا للفعل ولردود الفعل المؤثر بالضرورة في الواقع الاجتماعي والمعيشي لسكان البلاد التونسية. فقد حرك الفعل السياسي في مجال العلاقة مع المال كل تلك الاستراتيجيات والتشكلات الاجتماعية الناجمة عنها، وهذا ما عبر عنه " نوربارت إلياس"، حيث أكد على أن الحضارة تبنى عبر مسار في تحويل التوازن بين "الأنا" و" النحن"، وأن للسلطة السياسية مكانة أساسية في بناء ملامح التشكلات الأساسية للفئات الاجتماعية حيث تتحرك الدوافع والرغبات الفردية لتنخرط مع متطلبات الواقع السياسي الذي تهيمن عليه السلطة، فتنشأ بذلك سلوكات وممارسات متطابقة ومتناغمة مع المشروع الحداثي للدولة. فالتأثير نتيجة هذه العلاقة، يصل مداه إلى عمق الشخصية الأساسية الراغبة في الارتقاء والحصول على المكانة الاجتماعية وهذا لن يكون إلا في إطار المسالك التي وضعتها الدولة وأمنت لها مساراتها.

وحسب الملامح المميزة لهذا الاتجاه فهو لا يعطي قيمة لمسارات إنتاج الثروة بما فيها العمل بقدر ما يعطي قيمة أكثر الى الجمع والتراكم في المال وعناصره وفق منطق الغاية تبرر الوسيلة. ويتم تبرير الوسائل وشرعنتها بشتى الطرق القانونية والدينية الأخلاقية والنفوذ والسلطة.

الاتجاه الثاني: وفيه نجد نمطا ثقافيا اجتماعيا قائما على التدرج من الحد الأدنى من العمل لتحقيق الاكتفاء من الحاجيات الأساسية الى سلوك التخلي عن الفعل وعن العمل والبحث عن تعويض ذلك في عوالم روحية. ويتجلى هذا النمط في فئتين اجتماعيتين متقاربتين في الأرضية الثقافية وهما:

3.5 فئة العمل والعبادة حسب النمط الاجتماعي لتشكل العناصر الثقافية كما يبينها الرسم عدد 4

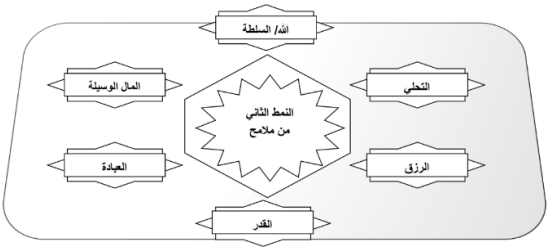

من أهم القيم الثقافية التي تشتغل وفق هذا النمط من تشكل الشخصية القاعدية التونسية خلال القرن التاسع عشر تتمثل في الثنائيات المتجانسة التالية:

- الله / السلطة، القدر
- التحلي، الرزق
- المال الوسيلة، العبادة

ويبدو أن " العمل" غير بارز من خلال هذا النمط من الشخصية إلا أنه يتخفى أمام الرزق الذي يأتي من القناعة والعيش الكفاف والرزق بالحياة الطيبة مثلما يروى من هذا الحديث الذي رواه الإمام احمد بقوله" حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني شرحبيل بن شريك ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " قد أفلح من أسلم ورزق كفافا ، وقنعه الله بما آتاه " (الألباني، د ت، ص129)

كما يتجسد هذا النمط في المقولة الشعبية التي تعيش الكفاف من كل شيء فلا ترغب في الاستزادة منها ولا تحقيق التراكم حين تقول:" مسيحة وعبيدة وسبيحة". فالمسيحة هي عنوان العمل اليدوي الفلاحي وهي كلمة تصغير للأداة الفلاحية " المسحة" التي تستعمل في تقليب الأرض ونقبها " أعط الفرض وانقب الأرض"، كما أن العبيدة هي تصغير لمصطلح العبادة بما يعني عدم الانغماس في الاعتكاف والتفرغ للعبادة فقليل من العبادة يكفي للمرور السالم الى دار الآخرة. أما السبيحة فهي تصغير أيضا لل " السبحة" التي تستعمل في الذكر والدعاء. وقد استعملت جميع هذه الأدوات في صيغة أسماء تصغير كعلامة عن الاكتفاء بالحد الأدنى من كل شيء بما فيها العمل والعبادة.

أما الفئة الاجتماعية الثانية من النمط المتقارب مع الفئة الأولى فهي فئة يمكن تسميتها بفئة التخلي والتفتت حيث يغيب معطى العمل كليا ويفوض أمر الانسان كله الى الفاعل المطلق الذي هو " الله". فيتم ترك الدنيا وأعمالها وينتهي الواقع بصاحبه الى إهمال الكسب والمال وتبديده حسب تشكل العناصر الثقافية التالية كما يبينها الرسم:

4.5 الملامح الثقافية للشخصية القاعدية في إطار دائرة فعل التفتت

رسم عدد 5: ملامح الشخصية القاعدية في إطار دائرة التفتت/ نقيض العمل

ويتوفر هذا النمط الاجتماعي على الثنائيات الثقافية التالية:

- الله/الفعل، القدر
- التخلي، الرزق
- المال العين، التفتت

والملاحظ في هذين النمطين من أنماط الشخصية القاعدية التقارب الثقافي في القيم والتمثلات والممارسات المترتبة عنها ومن السهل جدا أن تتم الحركة بين هذه العاصر في الشخصية الواحدة ذهابا وإيابا من التحلي الى التخلي التام ومن العبادة الى تفتيت الرزق وترك الدنيا. وهي حركة تسير في اتجاهات مختلفة بحسب الأحداث والسياقات السياسية والاقتصادية التي يمر بها المجال.

أما الشواهد التاريخية المعبرة عن هذا التوجه العام من الملامح الشخصية فهي كثيرة ولعلنا نشير هنا الى انتشار ظواهر اجتماعية كثيرة مثل الطرق الصوفية وظاهرة الأولياء والزوايا وجميع الممارسات التي تلحق بهذه الظواهر. وقد حملت الذاكرة الجماعية نصوصا ثقافية تواترت عبر التاريخ وامتدت حتى الى الزمن الحضر ومنها نجد:

كما يلاحظ تجانسا لتلك الملاحظات المنقولة مع مضمون نص الأبيات الشعرية التي نقلت عبر التاريخ والمنسوبة للإمام الشافعي، والتي تذهب الى وصف السلوكات المعبرة عن الفقر والرضا بالقدر والتخلي عن الفعل وهي سلوكات مميزة في التعبير عن العلاقة مع الفعل والعمل والوسائل المحققة لذلك::

عليك بتقوى الله إن كنت غافلا ... يأتك بالأرزاق من حيث لا تدري
فكيف تخاف الفقر والله رازقا ... فقد رزق الطير والحوت في البحر
ومن ضن أن الرزق يأتي بقوة ... ما أكل العصفور شيئا مع النسر
تزول من الدنيا فإنك لا تدري إذا ... جن عليك الليل هل تعيش الى الفجر

وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر
وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا وأكفانه في الغيب تنسج وهولا يدري
فمن عاش ألف وثلاثين فلا بدا من يوم يسير فيه الى القبر[9]

كما يتوافق المضمون الثقافي والقيمي التاريخي لهذه الأبيات الشعرية التراثية مع ما يتناقل من تعبيرات شفوية لا تزال متداولة الى عصرنا الراهن وتحملها جميعها إشارات التخلي عن العمل والكسب وضعف السعي وراء الوسائل المحققة لذلك، وفي ذلك نجد الأمثال الشعبية التالية:

- *"عاش ما كسب مات ما خلى"*
- *"الدنيا قش والي يتنفخ يتفش"*
- *"تبني وتعلي تمشي وتخلي"*
- *"الفلوس وسخ الدنيا"*
- *"المال يخلف الهبال"*
- *"كان جات تجيبها سبيبة وكان مشات تقطع السلاسل"*
- *"إذا سألتم الله فاسألوه البخت"*
- *"إذا عطاك العاطي لا تشاطي لا تباطي وإذا ما عطاكش العاطي حتى كلامك يولي خاطي"*
- *"الله غالب"*

6. "مخزن مسكر ولا كرية مشومة"[10]

نستعرض في هذا العنوان بعض الممارسات الراهنة التي تحيل الى العناصر الثقافية التي تم رصدها بالشخصية القاعدية خلال القرن التاسع عشر وتحيل الى إمكانية الاستمرار في تعزيز الدلالات الثقافية والرمزية المرتبطة بها. هذه الممارسات تتعلق بأحد الأطراف الدالة على العمل ومثالنا هنا يتعلق بالمخزن. فالمخزن أو المغازة هو عنصر بارز في دورة العملية التجارية لأنه فضاء قادر على استيعاب فائض الإنتاج اليومي بعد الاستهلاك إما بصفة مؤقتة ظرفية أو بصفة ممتدة في الزمن، و يمكن التصرف في مدخلاته بحسب قواعد السوق والبيع والشراء. والمخزن في العملية التجارية هو شبيه ببيت المؤونة أو " الكوجينة" في الحياة العائلية التي تتم تهيئتها بشكل دقيق لحفظ المواد الغذائية طيلة دورة السنة وتأمين احتياجات المنزل والقائمين عليه على مدار الفصول الأربعة.

[9] تتوزع المصطلحات والدلالات الواردة في هذا النص على كثير من العناصر الثقافية المركزية في الثقافة العربية الإسلامية وليس هناك ما يدل على صحة المرجع ولكنه ينسب الى شخصية تاريخية في إطار التسويق الثقافي للنص وقد نجح بأن يحقق انتشارا واسعا ويتحيز مكانا بالذاكرة الشعبية ويحقق الاستمرار في الزمن.

[10] مثل شعبي تونسي معناه تفضيل المخزن المغلق على الكراء الذي تتبعه مشاكل وأتعاب لا طائل من ورائها.

ولذلك تتباهى النسوة عادة بهذا الأمن الغذائي الذي ينعكس على المظهر الاجتماعي والاقتصادي والجمالي لهن ومن أمثلة ذلك القول:

- *"خبزك مخبوز وزيتك في الكوز"*
- *" لو كان الدهان في عكتها راو بان على قصتها"* [11]

وأغلب مواد الخزن ببيت المونة هي عناصر أولية توفره الفلاحة المحلية الغالبة من قمح وشعير وما يشتق منهما ومن زيتون وزيت وتمر وعناصر أخرى مما يسمى بالصناعات الغذائية الأولية المشتقة من القمح والشعير ومن التوابل والحمص والفول والعدس وغيرها من المواد بحسب منتوجات كل جهة وتقاليدها. فبيت المونة إذن هو مفهوم بنيوي في المخيال الجماعي هدفه التصرف في فائض العمل بحسب الحاجة مما يجعل منها تحقق وظيفة غذائية ووظيفة تأمين على تقلبات الحياة حين ينهار الإنتاج أو يتقلص أو يتراجع لسبب ما طبيعيا كان أو سياسيا، أو اقتصاديا، أو عائليا، أو فرديا.

أما المخزن فهو الوجه الأخر للتأمين من السلع الموجهة للتجارة وتزويد السوق. فالسوق محتاجة الى المخزن لتجميع فائض العمل والإنتاج وإعادة التصرف فيها بحسب السائد من الفكر الاقتصادي والممارسة الرائجة. وقد نشطت حركة توفير المخازن كثيرا مع ازدهار الأعمال وخاصة منها الحرف بالمدن وكانت التوسعة للحانوت تتجه نحو توفير المخزن إما بالقرب منه أو في مكان آخر حيث يتوفر التواصل والفضاء الواسع، فكان المخزن هو العنوان الآخر للعمل ولطاقة العمل وقوة العمل. فكلما ازداد العمل ارتفع الفائض الزائد عن تلبية الحاجة الاستهلاكية اليومية، وتم اللجوء الى الحفظ والخزن بهدف الاتجار به في الراهن أو في المستقبل الذي يوفر أرفع العائدات على المستوى المحلي والخارجي أيضا. ومن هنا يراهن الفاعلون الاقتصاديون على توفير المخازن وتجهيزها وحمايتها حتى تؤمن هذه الوظائف الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية منها، فتراهم حريصين دائما ويقظين لمستويات الخزن لديهم، وسواء كان صاحب المخزن تاجرا، أو حرفيا، أو

[11] ومعناه اذا كان للمرأة مخزون من الدهان في بيتها بالزير أو بالقربة أو بالشكوة أو بالمزود أو بالعكة، لكانت آثاره بارزة في مظهرها الخارجي وفي تجملها وفي بريق قصتها أي ما ظهر لها من شعر على جبينها.

لزاما أو جهازا راجعا بالنظر الى الدولة (مخزن رابطة القمح بالرابطة: تونس العاصمة)، فإن دائرة التأمين تتسع وتضيق بحسب مستوى قوة مادة الخزن وقيمتها الاقتصادية على المدى الحاضر وعلى المدى المتوسط والبعيد أيضا.

ونظرا لأهمية هذا المخزن في المشهد الاقتصادي فقد وجد الفاعلون الاقتصاديون في المخزن مجالا ربحيا وضلوا يعملون فيه بالبيع والشراء والكراء أيضا، لكنهم كثيرا ما اصطدموا بعوائق خطيرة أثرت على مكانة المخزن في سلسلة العمليات التجارية فكانت تداعياتها سلبية على العمل وعلى الإنتاج. فالمخازن كانت ولا تزال هدفا للصوص بكافة أنواعهم وهي أيضا هدفا بالنسبة الى الدولة حين يضيق بها الحال حيث ينتهي حال المخزن في سياقات تاريخية كثيرة الى أن يكون عبئا أكثر منه حلا اقتصاديا وهذا ما خلدته الذاكرة الجماعية فعليا في وصفها للواقع بذلك القول الشفوي: " مخزن مسكر ولا كرية مشومة"

ومثلما أشرنا الى موقع السلطة المصاحب لتشكيل الممارسة والسلوك في شخصية التونسي، فإن هذا الموقع يستمر هنا من خلال دلالات ومعاني المثل الشعبي الذي طفح الى سطح الذاكرة من جديد في الوقت الراهن لدى التونسيين من خلال ما أظهرته وسائل الإعلام في بداية سنة 2022 من صور لرئيس الدولة التونسية مدعما بالقوة الأمنية وهو يقتحم أحد مخازن الحديد الكبرى بالبلاد التونسية ويعرض محتوياته للعموم على أنه احتكار وفساد يجب مقاومته معلنا عن حملة تفتيش للمخازن بجميع أنواعها. وكان لهذا الفعل الاستعراضي السياسي غير محسوب العوائق تداعيات مباشرة على سلسلة العمل والإنتاج والخزن والتأمين حيث تأثر المخزون الاستراتيجي للمواد الاستهلاكية التي تمس الحياة الاستهلاكية اليومية للمواطن بشكل مباشر.

وقد وثق لهذا الحدث البرنامج الإعلامي التونسي " الحقائق الأربعة" للإعلامي الاستقصائي " حمزة البلومي" بعنوان " المخازن الفارغة" بتاريخ 20 نوفمبر 2022 (https://fb.watch/hF64xaZeF3/) كشف التقرير الإعلامي من خلال الصور أنه بعد بضعة أشهر من هذا السلوك السياسي غير المحسوب لم يعد للمخازن القدرة على تأمين وظائفها الاقتصادية حيث تم الحاق الضرر بإحدى اهم فقرات سلسلة العمل والإنتاج وأصبح الخطر يلاحق أصحاب المخازن مما هيأ الأرضية المناسبة لإيقاف عملها وعمل على تقليص المواد المعروضة

في السوق فارتفعت أسعارها بأشكال غير معهودة نظرا لندرتها وفراغ المخازن من معروضاتها، وتضاعف التهافت عليها حتى أننا بتنا على مشاهد نادرة في المجتمع التونسي للظفر ببعض المواد الغذائية التي كانت الى عهد قريب تعرض بكميات وافرة وتصدر الى الخارج بكميات وافرة .

لقد تجدد المعنى من خلال هذه الممارسة المستحدثة للمقولة الشفوية " مخزن مسكر ولا كرية مشومة" نتيجة أثر الفعل السياسي في الواقع الاقتصادي الذي يطمس قيمة العمل ولا يراهن عليها، واستجاب رد الفعل الى التخلي عن الفعل والانسحاب من المشهد بحثا عن السلامة وفي إطار ذلك تتغذى الذاكرة الجماعية بأحداث راهنة تعزز المكتسبات التاريخية في مقومات الشخصية التونسية وعناصرها الثقافية حول قيم العمل والفعل سواء عبر المشهد الاقتصادي كما عرضناه أو عبر المشهد السياسي كما عبر عنه التونسيون وفق عقلانية الصمت والانسحاب والممارسات المترتبة عنها في استفتاءات الدستور وفي الانتخابات التشريعية في ديسمبر 2022.

وهكذا فإنه بقدر ما يدعو الراهن الى التفاؤل بالوعي الحضاري بأهمية قيمة العمل في النمو والنهضة الحضارية، بقدر ما توفر ممارسة الراهن أشكالا من الاستمرارية التاريخية للعناصر الثقافية بمجالنا القطري والمغاربي والعربي وتعزز من دلالات ثقافية نحن في حاجة الى مساءلتها باستمرار للتخلص من الشوائب التي تشدها وتعوق تقدمها.

7. الخاتمة

لقد حاولنا في هذا المقال الانطلاق من الإجابة على سؤال: ما هو موقع العمل من الأنماط الاجتماعية في الشخصية القاعدية التونسية خلال القرن التاسع عشر؟ ومنه انتقلنا الي الإجابة أيضا عن السؤال التالي: ماهي الأنماط الاجتماعية الأخرى التي تزاحم العمل؟ فتجعله محدودا ومطموسا، وغير بارز، واقعيا، وحضاريا؟ وما هي العناصر الثقافية الفاعلة تاريخيا في توجيه وبناء ملامح السلوك التونسي خلال فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي؟

وحاولنا الاستفادة منهجيا من المقاربة التاريخية والانتروبولوجية للشخصية القاعدية وقراءة قيمة العمل من خلالها. وهو ما يدعونا أيضا للتساؤل: هل توجد تحولات في الفترة المعاصرة والراهنة؟ هل

أن الذاكرة الجماعية لا تزال تحتضن العناصر الثقافية التاريخية ذات العلاقة بالعمل؟ وما هي المعاني الجديدة التي تضيفها بحكم التحديث المستمر للراهن؟

كما عملنا على الاستفادة من الأطروحات التي تعتمد مقاربة الشخصية القاعدية للبحث في ملامح السلوك القيمي والثقافي لمجموعة بشرية ما تندرج ضمن ما استقرت عليه نتائج البحوث الأولى الأمريكية ذات الطابع الميداني والبراغماتي، والتي انتهت مع "لينتن " و"كاردينير " الى فكرة الشخصية القاعدية Basic personality type ، أي نموذج الشخصية القاعدية، الذي يعني ذلك الرصيد المشترك بين أفراد الجماعة الواحدة، وهذا الرصيد أبعاده ليست نفسية وإنما أيضا ثقافية بامتياز وبالإمكان استثمار هذه المقولة لاعتمادها كمادة لتفسير الواقع كما يمكن اعتمادها أيضا مصدرا لفهم ذلك الواقع.

واستعمال الشخصية القاعدية كمفهوم أداتي يحمل قيمة منطقية واجرائية لفهم المجتمع وممارسات أفراده في العلوم الاجتماعية، في إطار المنحى البراغماتي للمفاهيم والمقاربات الأمريكية، ونظرا لأهمية المفهوم في قراءة الفرد والمجتمع والتاريخ والثقافة في الآن نفسه، فقد وظفه الكثير من الباحثين التونسيين في التاريخ والاجتماع على السواء، ونذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر، المؤرخ "هشام جعيط" وعالم الاجتماع "المنصف وناس"، والمؤرخ "الهادي التيمومي"، في رسم معالم مستقبلية لتطوير الواقع الراهن وتغييره بهدف الاستجابة للتحديات التنموية.

ونحن بدورنا نستثمر هذه القراءة للتفكيك والتشخيص حتى يتبين موضع الفعل والتحديث، وقد رصدت قراءتنا التاريخية عن تشكلات متحركة لأربعة أنماط اجتماعية تعبر عن ملامح الشخصية القاعدية التونسية حيث يكون العمل بارزا في أحد أنماطها إلا أنه يتوارى شيئا فشيئا مع بقية الأنماط الأخرى إما في اتجاه التراكم في ثروة وإما في اتجاه التحلي والتخلي كاستراتيجيات اجتماعية عقلانية دفاعية في سياقات التأثير السياسي والاقتصادي للبلاد التونسية.

8. قائمة المراجع:

Bachlet M.T, Les ARABES, Paris, Rouen Megard et companies,(Bibliothèque morale de la Jeunesse, 1857.

CHATAIGNé Christine, BONARDI Christine, PANTALéON Nathalie, « Niveaux de référence dans l'évaluation des valeurs du modèle de Schwartz », *Les Cahiers Internationaux de Psychologie Sociale*, 2016/4 (Numéro 112), p. 427-453. DOI : 10.3917/cips.112.0427. URL : https://www.cairn.info/revue-les-cahiers-internationaux-de-psychologie-sociale-2016-4-page-427.htm

- Danguin, J., La Tunisie, Tunis, Librairie Britalie, 1907
- Hénia Abdelhamid, *Propriété et stratégies sociales à Tunis* 16-19ème siècles, Tunis, Faculté des Sciences Sociale de Tunis,1999
- Lapie Paul, Les *civilisations tunisiennes*, Paris, Pelex Alcan éditeur, 1898
- Rodinson Maxime, *Islam et capitalisme* , Paris, Seuil, 1966

Schwartz, S.H. (1992). Universals in the content and structure of values: theoretical advances and empirical tests in 20 countries. In M. Zanna (Ed.), Advances in experimental social psychology, volume 25 (pp.1-65). Orlando, FL: Academic Press.

- Sonneck C, *Chants arabes du Maghreb : étude sur le dialecte et la poésie populaire de l'Afrique du Nord*, Tome 1, textes arabes, Paris, Librairie orientale et Américaine, 1902.
- Villot. E., Description géographique de Tunis et de la Régence : (avec notes historiques, ethnographiques et archéologiques), Paris, Challamel Ainé Editeur, 1881

- ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأحبار، تونس، كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، 1963.
- أبي عبد الله البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد، الطبعة الرابعة، مكتبة الدليل، 1996.
- إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس الى طرابلس في سنة 1835 مرورا بسليمان ونابل والحمامات وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجربة،. نقلها من الألمانية الى العربية وقدم لها وعلق عليها: منير الفندري، تونس: المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات(بيت الحكمة)، 1991، (تونس Prisme).
- التيمومي الهادي، كيف أصبح التونسيون تونسيين: رحلة " حنون" معاصر في رحاب التاريخ، تونس: دار محمد علي الحامي، 2015.

- جعيط هشام، الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، الطبعة الثالثة، نقله الى العربية: المنجي الصيادي، بيروت: دار الطليعة، 2008. العنوان الأصلي للكتاب في طبعته الأولى : La personnalité et le devenir arabo-islamique. Paris, seuil, 1974.
- الخضراوي محمد الحبيب، الشخصية التونسية القاعدية خلال القرن التاسع عشر والتشكلات الثقافية المتحركة: مقاربة في فهم ملامح الشخصية التونسية من خلال مدخل العلاقة مع المال، الطبعة الأولى، تقديم: الأستاذ الدكتور المبروك المناعي، تونس: مجمع الأطرش للنشر، 2022 ،284 صفحة، (سلسلة: علوم ثقافية).
- الخضراوي محمد الحبيب، المال والثروة في البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر: الممارسات والتمثلات، اشراف عبد الحميد هنية، تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2012. (دكتوراه في علوم التراث: قسم التاريخ).
- الخضراوي محمد الحبيب، بناء الدولة ومسار التحديث في تونس بين المنطق الاقتصادي والمنطق الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر: عناصر من الممارسات والتمثلات، في: المجلة العلمية للأكاديمية العربية في الدانمارك، الدانمارك: العدد 27، يوليو 2021.
- السنوسي محمد، الروض الزاهر في إسناد الحبس للإسلام الباهر، تحقيق: محسن زكريا، تونس، المطبعة الرسمية، 1930.
- القلصادي، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، الشركة التونسية للتوزيع, 1978م

لابن عبد البر، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، دار قتيبة للطباعة والنشر، 1993.
- المرزوقي محمد، أحمد ملاك شاعر الحكمة والملحمة (دراسة ونماذج)، تونس: وزارة الاعلام والشؤون الثقافية، منشورات الحياة الثقافية، 1980
- الوناس منصف، الشخصية التونسية: محاولة في فهم الشخصية العربية، تونس: الدار المتوسطية للنشر، 2011.